

تفسير البحر المحيط

. @ 436 @

وقال تعالى : { مَا يَكُونُ لِي أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ }
إِلَّا مَآ يُوْحَىٰ { إلى والضمير في نسله عائد على الذكر قاله الزمخشري ، قال :
والضمير للذكر أي : مثل ذلك السلك . ونحوه : نسلك الذكر في قلوب المجرمين على معنى أنه
يلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزأ به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حجة فلم يجبك إليها
فقلت : كذلك أنزلها باللائم يعني : مثل هذا الإنزال أنزلها بهم ، مردودة غير مقصية .
ومحل قوله : لا يؤمنون النصب على الحال أي : غير مؤمن به ، أو هو بيان لقوله : كذلك
نسله انتهى . وما ذهب إليه من أن الضمير عائد على الذكر ذكره الغرنوي عن الحسن . قال
الحسن : معناه نسلك الذكر إلزاماً للحجة . وقال ابن عطية : الضمير في نسله عائد على
الاستهزاء والشرك ونحوه ، وهو قول : الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد . ويكون
الضمير في به يعود أيضاً على ذلك نفسه ، وتكون باء السبب أي : لا يؤمنون بسبب شركهم
واستهزائهم ، ويكون قوله : لا يؤمنون به في موضع الحال ، ويحتمل أن يكون الضمير في
نسله عائداً على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر وهو القرآن أي : مكذباً به مردوداً
مستهزأ به ، يدخله في قلوب المجرمين . ويكون الضمير في به عائداً عليه ، ويحتمل أن
يكون الضمير في نسله عائداً على الاستهزاء والشرك ، والضمير في به يعود على القرآن ،
فيختلف على هذا عود الضميرين انتهى . وروى ابن جريج عن مجاهد بذلك التكذيب ، فعلى هذا
تكون الباء في به للسبب . والذي يظهر عوده على الاستهزاء المفهوم من قوله : يستهزؤون ،
والباء في به للسبب . والمجرمون هنا كفار قريش ، ومن دعاهم الرسول إلى الإيمان . ولا
يؤمنون إن كان إخباراً مستأنفاً فهو من العام المراد به الخصوص فيمن ختم عليه ، إذ قد
آمن عالم ممن كذب الرسول . وقد خلت سنة الأولين في تكذيبهم رسلهم ، أو في إهلاكهم حين
كذبوا رسلهم ، واستهزؤوا بهم ، وهو تهديد لمشركي قريش . والضمير في عليهم عائد على
المشركين ، وذلك لفرط تكذيبهم وبعدهم عن الإيمان حتى ينكروا ما هو محسوس مشاهد بالأعين
مماس بالأجساد بالحركة والانتقال ، وهذا بحسب المبالغة التامة في إنكار الحق . والظاهر
أن الضمير في فظلوا عائد على من عاد عليه في قوله : عليهم ، أي : لو فتح لهم باب من
السماء ، وجعل لهم معراج يصعدون فيه لقالوا : هو شيء تتخيله لا حقيقة له ، وقد سخرنا
بذلك . وجاء لفظ فظلوا مشعراً بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضحين لما عاينوا ، على
أن ظل يأتي بمعنى صار أيضاً . وعن ابن عباس أن الضمير في فظلوا يعود على الملائكة

لقولهم : { لَّوْ مَآ تَأْتِيَنَا بِالْمَلَأِكَةِ } أي : ولو رأوا الملائكة تصعد وتنصرف في باب مفتوح في السماء لما آمنوا . .

وقرأ الأعمش ، وأبو حيوه : يعرجون بكسر الراء ، وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود . وجاء لفظ إنما مشعراً بالحصر ، كأنه قال : ليس ذلك إلا تسكيراً للإبصار . وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن كثير : سكرت بتخفيف الكاف مبنياً للمفعول ، وقرأ باقي السبعة : بشدها مبنياً للمفعول . وقرأ الزهري : بفتح السين وكسر الكاف مخففة مبنياً للفاعل ، شبهوا رؤية أبصارهم برؤية السكران لقلة تصويره ما يراه . فأما قراءة التشديد فعن ابن عباس وقتادة منعت عن رؤية الحقيقة من السكر ، بكسر السين وهو الشد والحبس . وعن الضحاك شدت ، وعن جوهري جدعت ، وعن مجاهد حبست ، وعن الكلبي عميت ، وعن أبي عمرو غطيت ، وعن قتادة أيضاً أخذت ، وعن أبي عبيد غشيت . وأما قراءة التخفيف فقليل : بالتشديد ، إلا أنه للتكثير ، والتخفيف يؤدي عن معناه . وقيل : معنى التشديد أخذت ، ومعنى التخفيف سحرت . والمشهور أن سكر لا يتعدى . قال أبو علي : ويجوز أن يكون سمع متعدياً في البصرة . وحكى أبو عبيدة عن أبي عبيدة أنه يقال : سكرت أبصارهم إذا غشيها سهاد حتى لا يبصروا . وقيل : التشديد من سكر الماء ، والتخفيف من سكر الشراب ، وتقول العرب : سكرت الريح تسكر سكرًا إذا ركبت ولم تنفذ لما انتفت بسبيله ، أولاً وسكرًا الرجل من الشراب سكرًا إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما كان للإنسان أن ينفذ فيه . ومن هذا المعنى سكران بيت أي : لا يقطع أمراً . وتقول